دور مصر...

حديث هادئ مع التاريخ

العسكرية المصرية

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾

قرآن كريم

obeikan.com

أتصور أن الخطأ ـ أو الخطيئة ـ هو أن نتعامل مع دور مصر برؤية مسطحة لأن الأمر يرتبط بالتفاعلات التاريخية والحضارية والتى لا يمكن إغفالها ونحن نتحدث عن هذا الدور. . ولأن الجغرافيا والتاريخ ـ معا ـ والتجارب والمواريث الحضارية لقرون طويلة خلقت ما يمكن أن نطلق عليه "قواعد التأسيس" للدور المصرى. . ومن هنا يمكن قراءة ملامح المستقبل. . وإدراك حقائق القوة وحركة الدور وتفرده.

. . . .

. . . .

وهناك من يحاول أن يقترب من هذا الدور بأفكار وتصورات لا ينقصها سوء الفهم بقدر ما تفيض بسوء النوايا، وتستند إلى حسابات الوهم ـ والمسألة ليست مجرد آراء أبداها أصحابها، ولكنها تصورات وتقديرات "عشوائية" تمتد فصولها إلى سنوات ما قبل التاريخ. . ومن "أبوبى" ملك الهكسوس حين تصور أن دور مصر انكسر تحت ضغط الضعف السياسى للبلاد. . وإلى "هولاكو" و"غازان" وتصورات المغول أن دماء الشرق سوف تزحف أنهارها على الدور المصرى ويستقر لهم ملك الشرق والمغرب. . ومن البطالمة إلى "جان دى بريين" و"لويس التاسع" وتصوراتهم بأن الصليبيين لا مستقر لهم فى الشرق باستقرار مصر، وأن هزيمة الدور المصرى وإجهاض تحركاته البداية الصحيحة لترسيخ قواعد سلطاتهم وسلطانهم. . وهكذا سلسلة متصلة الفصول من قصة طويلة تؤكد أن مصر كانت استثناء نادرا فى العالم فقد استطاعت السيطرة على أوهام وأحلام ومطامع الآخرين. . وأن تعيد تصحيح مسار التاريخ. . ولا أظن أن أحدا يختلف معى بأن القوة العسكرية هى أحد

Obeikan.com

عناصر أو دعائم هذا الدور . . وصحيح أن القوة العسكرية ليست وحدها القـوة الدافعـة لحركة الـدور، ولكنها تـبقى ـ دائمـا ـ قاعـدة الانطلاق والتأثير . . وإذا كانت حقائق القوة للدور وتـأثيره يصنعها البشر أولا قبل الموقع وأهميته ثانيا، فإن العسكرية ـ دائما ـ تأتى تجسيدا لخصائص وهوية وفكر وقيم ومبادئ هذا الدور.

وهكذا كانت العسكرية المصرية . .

ويقول الدكتور جمال حمـدان : أن درس الحروب الصليبية هو درس استراتيجى أساسا، يؤكد لـنا خطورة الموقع، وأن تحرير الأراضى المقدسة رهنا باتحـاد قوة مصر البشريـة مع قوة الشام، وحـين تحقق هـذا كانت "حطين" صـلاح الدين فى النصف الثانـى من القرن الثانى عـشر، هى "أرما جدون" الصليـبيات وبداية نهايتها، وفى النصـف الثانى من القرن الثالث عشر كانت هذه النهاية، ولكن ما بين بداية النهاية ونهايتها تحولت الصليـبيات إلى مـصر حيث أدركت بـالتجربة المـريرة أنها قطب المنـطقة استراتيجيا وبشريا . .

وأن الإمبـراطورية العثمـانية حين اتجـهت إلى الشرق العـربى وذلك ابتداء من العقـد الثانى من القرن السادس عشر أى بعـد نحو ثلاثة قرون من ظهورهم كقـوة لأول مرة فى الأناضول، فقد اتجه الـزحف إلى مصر رأسا عن طـريق سوريا التى كـانت تابعة لمصـر المملوكيـة، وهذا الاتجاه المحدد يؤكـد ما سبق أن أوضـحته الصلـيبيات مـن أن مصر هى مفـتاح المنطقة العربية، لاسيما أن كل ثقل الدولة العربية الإسلامية كان قد انتقل كاملا ونهائيا إلى مصر بعد تدمير العراق على يد المغول . .

وربما وجدنا أنفسنا الآن فى حاجة إلى التفاتة سريعة إلى الوراء.. إلى الخبرة التاريخية العظيمة للشعب المصرى والتجارب المستقرة فى تضاعيف الزمن.. وهذه نقطة أريد أن أشرحها أكثر حتى لا يقال أنه استدعاء ذكريات الماضى أو القياس على أطلال وأحداث تاريخية.. رغم أن من يتجاهل التاريخ هو من ينسى أن البذرة هى التى تصنع الشجرة..

....

والعسكرية المصرية ودورها ـ على سبيل المثال ـ تعد نموذجا للتعبير عن هذه الحقيقة.. وأقصد حقيقة وحدة البنيان لحركة الدور، وكيف أن عبقرية الإنسان المصرى لا تعتمد على أسطورة غيبية ولكن تستمد روحها من التجارب التى تضيف إلى بعضها البعض عمقا، ودروسا مستفادة، وخبرات إنسانية تسكن فى أعماق الوجدان المصرى، ثم شكلت ملامح الشخصية المصرية ـ وهى المحرك الرئيسى للدور ـ وما انفردت به من طاقات وإبداعات.. ولست أريد هنا أن أقوم بعملية تطبيق كاملة لهذه العوامل والقواعد، فذلك بحث طويل، ثم أن هناك من هو أقدر على القيام به ـ علما وفكرا وتخصصا ـ ولكن يبقى هدفى هو أن أشير إلى تأثير "قواعد التأسيس" على الدور المصرى.. أن أشير إلى ترابط وتلاحم وتناغم الحركة التاريخية من تجارب، وتطوير إبداعى، ومواريث حضارية.. وكيف أن الإنسان المصرى بعد أن تحدى موجات من استفزازات غرور القوة، ومن التشكيك، وفقدان الثقة فى قدراته.. أدار مواجهات عسكرية حاسمة، وبفكر عسكرى منظم، وسجل أول نظريات عسكرية فى التاريخ الإنسانى للتخطيط الميدانى، وتقسيم الجيش إلى قطاعات، ومواجهة العدو بأسلحته بعد تطويرها، وفرض أسلوب القتال

Obeikan.com

عليه.. وبعد الانتصار يتحول ليعيد بناء دولته من جديد.. ومن زمن الهكسوس إلى زمن المغول.. هو نفسه الإنسان المصرى الذى كان معجزة حرب أكتوبر وآيتها الكبرى وفى ظروف وأحوال ومهاترات وحملات تشكيك تقارب تماما ما حدث قبل ثلاثة آلاف عام وما بعدها..

إذن كانت العبقرية العسكرية تكرر نفسها وتعيد تصحيح مسار التاريخ.. ولو كان هناك منصف لأحكام التاريخ ولقدرات الإنسان المصرى.. لو كان هناك من يجيد قراءة التاريخ بموضوعية وفى ذلك التوقيت بعد نكسة ١٩٦٧ لأدرك وبوعى كامل ما سوف يحدث ويكون.. ومهما كانت العقبات والتحديات.. صحيح بعد نكسة ١٩٦٧ مباشرة كان القرار المصرى بقبول التحدى.. والقرار بالطبع مرادف دقيق لمعنى الإرادة المصرية ـ وهى خارج حسابات الهزيمة ـ لأن الإنسان المصرى الجريح وقتها بدأ سلسلة من العمليات العسكرية الناجحة بعد أيام فقط من النكسة، حدث هذا فى معركة رأس العش وانتصر.. ثم إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات بصاروخ من طراز "ستايكس" أثار اهتمامات وأبحاث الفكر العسكرى، وفتحت هذه العملية المصرية عصرا جديدا دخلت به الحروب إلى عصر الصواريخ ومرحلة جديدة فى تاريخ السلاح.. ثم حين أرسلت إسرائيل الغواصة "داكار" لاستكشاف القاعدة الرئيسية لقوارب الصواريخ تم إغراقها أيضا بقذائف الأعماق وتحولت إلى مقبرة حديدية تضم ٧٨ ضابطا وبحارا إسرائيليا.. وهكذا.. لم تهدأ حركة المواجهة رغم أن حديث النكسة فى الأيام الأولى كان مريرا، والقلوب تنزف بالحسرة والوجيعة.. وبقيت خصائص الإنسان المصرى ـ المتفردة ـ لم تطلها هزيمة عسكرية، وسجلت العسكرية

المصرية تجربة لا تزال حتى الآن فى منطقة الظلال ولم تحظ بما تستحق من دراسات وأبحاث وقراءة وقائع ما جرى. . رغم أنها وبكل المقاييس تجربة فريدة لإعادة البناء والتخطيط والتنظيم والتمهيد لمعركة الثأر والتحرير، وكل هذا تحت ضغط ظروف بالغة القسوة والمرارة، وفى ظل أجواء قاتمة وحزينة، والإحساس العام بأن كل شىء آيل للسقوط والانهيار.

ولكن. . كانت المفاجأة الحقيقية هى إرادة الإنسان المصرى، والحس التاريخى للمصريين وعطاء التجارب فى حياة الأمم. . وما حدث جاء على عكس كل التوقعات والتقديرات والتى أقامت حساباتها على رؤية مسطحة للتاريخ وللحركة التاريخية، واكتفت بمنطق موازين القوة فقط وبالواقع المنظور أمامها. . وتجاهلت القيمة الحقيقية لخصائص الإنسان المصرى. . ومن هنا كانت المفاجأة بعد أن أصبحت المبادأة فى يد المصريين بعد تنشيط الموقف العسكرى، وتسخين جبهة القتال، وتحديد استراتيجية المراحل الثلاث: الصمود ثم الردع ثم التحرير. . وخلال هذه الأيام الأولى من صدمة النكسة كان الجندى المصرى قد عرف طريقه للعبور إلى الشاطئ الشرقى من القناة.

ومع بداية السبعينيات خيمت حالة اللاحرب واللاسلم ومعها فتحت الأبواب للمبالغة فى الانهزامية اليائسة، وزحفت حملات التشكيك ترمى بسهامها فى كل اتجاه. . كأنه قد كُتب على مصر دائما أن تواجه بهذه الحملات والتشكيك فى قدراتها ودورها!! وانطلقت كتائب التساؤلات تدفع أمامها بعلامات التعجب الساخرة: كيف يتصور المصريون أن لهم القدرة على المواجهة والتغيير والتحرير؟! وأجمع الخبراء العسكريون فى العالم وبغير استثناء أن عملية العبور أقرب للمستحيل لأن ميزان القوة

وبكل المعايير لصالح إسرائيل، وأن قناة السويس نفسها حاجز مائى من أصعب الحواجز، وأن خط بارليف سلاسل متصلة من المواقع الحصينة، وأية محاولة للتحرك المصرى تتطلب تضحيات ليس من السهل قبولها.. وماذا تفعل مصر وكل ما تمتلكه يتم تصنيفه تحت قائمة الأسلحة الدفاعية.. وهل بمقدور الفكر العسكرى المصرى أن يجد حلا لمعادلة المستحيل(؟!) باختصار تم حجز الدور المصرى ـ وكما يرون.. وبتصوراتهم وتوقعاتهم ـ فى دائرة العجز خلف حاجز الخوف.. وأن أى حركة للدور المصرى لا تعدو كونها مغامرة مع المجهول.. وأن تغيير الأمر الواقع رهن تحركات وتدخلات ومساعى الآخرين مع توافر شرط مرونة الموقف الإسرائيلى!! ثم ماذا حدث(؟) فشلت كل التوقعات والتصورات والاستنتاجات.. وبدأت ملحمة العبور، وهى مفاجأة الدور المصرى.. وأصبح العالم أمام حدث فريد فى تاريخ الحروب.. تجربة عسكرية قلبت موازين النظريات المتعارف عليها.

....

ولم يتصور أحد أن المصريين كانت لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين إلى قدراتهم.. وإلى إبداعات الإنسان المصرى.. وإلى حكمة التجربة والتى تمتد جذورها القوية فى أعماق التاريخ.. فمنذ ثلاثة آلاف عام تقريبا كانت تجربة المواجهة مع استفزازات وتحرشات، وممارسات حماقة القوة وغرورها بعد احتلال الهكسوس لشمال مصر، واستقر بهم المقام فى الدلتا، واتخذوا لأنفسهم نظم الملك وألقابه المصرية، واستمر حكم هؤلاء الملوك حوالى قرن ونصف القرن من الزمان ـ وهو عصر الاضمحلال الثانى ـ وسادت أيضا أجواء التساؤلات مع اضطراب

الأحوال والأمــور: كيف يـتمكن المـصريون من تحـرير بلادهم وبـعد أن بلغت حـماقة الـهكسوس إلى هـذه الدرجة التى يـحتجـون معهـا على "أفراس النهـر" وأصواتها المزعجـة التى تقلق نوم ملك الهـكسوس على بعد ١٢٠٠ كيلومتر(!؟!) وكيف يواجـه المصريون عدوا استوطن وامتلك أدوات التكنيك الحربى فـضلا عن الخبرة القتالية لموجـات الهكسوس التى هبت كاسحة ـ وكما يقول المفـكر الراحل د. جمال حمدان ـ واستطاعت أن تضـرب من قلب الاسـتبس وعلـى طول هضاب ومـرتفعـات وسط جنوب غرب آسيا وحتى الوصـول إلى مصر(!؟!) ورغم تساؤلات اليأس والاحبـاط، سجل المصريـون أول حرب تحررية كـبرى فى تاريخ الـعالم وبعد أن أخذوا عن الهـكسوس ـ أنفسهم ـ العجلات الحـربية، والخيل، والقسـى المزدوجة، وألوانا من الأسـلحة والسيـوف مع تطوير التـكنيك الحربى حتى تمـكن "أحمس" من طرد الهكسوس وشطـب وجودهم بعد احتـلال دام حوالـى ١٥٠ سنة.. ثم بدأت حـركة الـدور المصرى بـعد الانتصـار بالاتجاه شـرقا وجنوبا، حـفاظا علـى الحدود، وتأميـنا لطرق التجارة والنقل، وضمانا لموارد الثروة..

لذلك مـدت مصر سيـادتها من سوريا وأعـالى الفرات فى الشـمال الشرقى وإلـى الشلال الرابع فى السـودان جنوبا ـ ويبدو واضـحا الوعى المبكر بضرورات تأميـن العمق الاستراتيجى، وخلق قواعد مـتقدمة لصد أية محاولات للعدوان والغزو ـ وازدهرت الحياة فى مصر، ومع الاستقرار الداخلى ترسـخت قوة العسكريـة المصرية.. ويجمع المـؤرخون على أن "تحتمس الثالـث" أول قائد حربى فى التاريخ وضع خطة تقـسيم الجيش إلى قلب وجناحين، وتشكيل مجلـس أركان حرب يتشاور معه فى وضع

الخطط الحربية . . وكانوا يدركون أن خط الدفاع الأول على مصر لا يقل عمقا عن تخوم الشام وهذا ما حدث أيضا ـ وبنفس الرؤية ـ فى عام ١٥١٧م حين سارعت مصر لملاقاة الزحف العثمانى خارج حدودها، ولكن تمزقت المقاومة المصرية فى "حلب" وتراجعت إلى خط الدفاع الثانى فى قلب القاهرة.

وتكررت التجربة مع غزو الآشوريين ومع احتلال الفرس . . وعجلة التاريخ لم تتوقف . . ثم أدرك الصليبيون بالتجربة المريرة أن مصر هى قطب المنطقة استراتيجيا وبشريا وهى مفتاح المنطقة العربية . . وأنه لا مستقر لهم فى الشرق طالما استمرت المقاومة المصرية . . وفى النصف الأول من القرن الثالث عشر شهدت مصر مواجهة حاسمة مع موجتين صليبيتين أبيدتا فى برارى وسهول الدلتا . وأعتقد أن أول وآخر انكسار للمغول فى عين جالوت عام ١٢٦٠م يحمل قدرا كبيرا من حسابات الاعتبار التاريخى وأثره على عطاء الإنسان المصرى . . يحمل قدرا كبيرا من عناصر القوة غير المنظورة الكامنة فى وجدان المقاتل المصرى . . فلم يتوقع أحد أن ينتهى المد المغولى على أيدى المصريين . . وكان ذلك منطقيا ومقبولا لعدة أسباب . . منها: إن برابرة التتار تحت زعامة "هولاكو" وصلوا إلى العراق بعد مسيرة طويلة حفرت تاريخها بالدم والعنف والتخريب والتدمير الرهيب، وتدفعها موجات سابقة من زمن جنكيز خان وكوبلاى خان تكتسح فى طريقها الدول وجيوشها . . وبعد فاجعة بغداد التاريخية ونهاية الخلافة العباسية يتقدم المغول إلى الشام مستهدفين مصر . . وفى المقابل كانت الأوضاع فى مصر غير مستقرة، والصراع يحتد بين المماليك على السلطة والحكم، والتآمر يخترق ميليشيات ورجال

كل فريق، وكانت هموم المطامع والمغانم تسيطر على الساحة وتنعكس على تصريف شئون البلاد.. ومنطق العقل يقول: أن الأبواب مفتوحة أمام موجات المغول وانتصاراتهم المتلاحقة، وأن ميزان القوة والخبرة القتالية يميل لصالحهم.. ثم تقدمت مصر بقيادة "قطز" لوقف زحف المغول عند خط الدفاع الأول، وانطلقت الكتائب والألوية تشق طريقها وسط الخطر إلى الشام.. وتبدأ المواجهة فى "عين جالوت" ويتلقى المغول أول وآخر انكسار لهم.. ولكن المطرقة المغولية عادت ثانية بعد قرن من الزمان مع تيمورلنك ليكتسح فارس والعراق وشمال سوريا حتى دمشق ولكنه عجز دون جنوبها أمام المقاومة المصرية..

والقصة طويلة ومتواصلة..

....

....

ورغم أن العسكرية المصرية طالت عشرتها مع السلاح والحرب والمواجهة أكثر من خمسة آلاف عاما إلا أنها القوة العسكرية الوحيدة فى العالم التى كانت حروبها حروب تحرير بالمعنى القانونى والواقعى، ولم تكن قوة غزو وتدمير واحتلال.. وفى الأحوال التى خرجت فيها إلى ما هو أبعد من حدودها جنوبا وشرقا كانت مواجهات ردع وتأمين للأمن القومى، أى حرب دفاعية وقائية فى حقيقتها.. والتحركات الخارجية للجيش المصرى وخلال السنوات العشرين تقريبا بين عهدى محمد على وإبراهيم باشا كانت استجابة لضرورات أمنية، واستجابة لأحكام الدور المصرى بالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده، والتفاعل مع ما يحدث من تغيير فى أوضاع المنطقة ـ وقتئذ ـ والتى كانت هدفا لأطماع

الأقوياء.

وحتى حين خرجت الجيوش المصرية إلى الشام فى عهد فراعنة مصر تحتمس، ورمسيس، فقد كانوا يدافعون عن أمن مصر القومى فى الجناح الشرقى من العمق الاستراتيجى.. ولم تكن هذه الرؤية عقيدة استراتيجية فى فكر فراعنة مصر فقط.. ولكن وبنفس الرؤية تقريبا خرج مماليك مصر عن حدود الوجه الإقليمى الضيق لمصر ليصدون موجات التتار والصليبيين.. وفى نفس النطاق الاستراتيجى لأ حكام الأمن العربى المشترك.

وفى كل الأحوال.. كان واضحا أن الموقع هو الذى يتحكم فى الموقف.. وهى ثوابت سبقت نظرية ألمانية فى القرن التاسع عشر تحدثت عن نفس المبدأ.

وفى كل هذا كان واضحا أيضا أن مسئوليات العسكرية المصرية أقرب إلى تلك الكلمات لزعيم الصين ماوتسى تونغ "احملوا السلاح دفاعا عن حدودكم وتأملوا فى نفس الوقت أحوال العالم وراء هذه الحدود.. وافهموا"

وقد سبق للعسكرية المصرية فى مجالها داخل ساحات القتال أن قدمت للتاريخ حصيلة تجارب متعددة لتنشيط الذاكرة تثبت أن مصر تستعيد حجمها الطبيعى فى أعقاب صدمات الانكسار.. وحتى فى هذه اللحظات من عمر التاريخ ورغم كل المصاعب لا يختل التوازن ويبقى اليقين المتجدد بأنها قادرة على الحركة.. وأن تنجز بهذه الحركة مهاما كبيرة على أرضها وحولها.. وقد ترجمت العسكرية المصرية ذلك فى آخر تجربة لها طرحتها أمام التاريخ فى عام ١٩٧٣ بإعادة البناء والعودة

بسرعة إلى الميدان لتقاتل.. وما تحملته وحققته تحت النار، كان ـ ولا يزال ـ معجزة بكل المقاييس.

....

....

والقوة العسكرية ـ بالفعل ـ ليست وحدها (القوة) المحركة والدافعة لأى دور لأية دولة.. فى أى عصر وزمن.. ولكنها ـ فى نفس الوقت ـ عنصر من أهم عناصره وفى نطاق حقائق وعلاقات وموازين القوة.. وأعتقد أنها واجهة الدور، والتجسيد العملى للأهداف والمطامع والهوية والخصائص.. وتأتى فى المقام الأول تعبيرا صادقا عن المفهوم الحضارى والإنسانى للدور.. ومن هنا تبرز العسكرية المصرية ـ تحديدا ـ فى مقدمة الحديث عن الدور المصرى ولمن يريد أن يفهم ويدرك حقائق هذا الدور وعلى ضوء المنظور وغير المنظور من أثر العمق التاريخى..

ويبدو واضحا من هذه الإشارة السريعة أن الموروث الحضارى داخل وجدان الإنسان المصرى من الوعى المبكر بالقيم الاجتماعية والأخلاقية والإنسانية.. وتجسيد العسكرية المصرية لحقيقة أن المصريين كانت لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين إلى دور الأخلاق فى التاريخ الإنسانى، ولذلك أقام المصرى تاريخه كله على رفض مالا يستقيم مع خلقه.. وراح ذلك كله يظهر فى ميادين وساحات الحرب من خلال التعامل مع الأسرى والجرحى من العدو ـ وأمامنا ما حدث فى حرب ١٩٧٣ وبشهادة الأسرى الإسرائيليين أنفسهم.. وفى المقابل نجد صورة بربرية.. وحشية، لا إنسانية من قبل الجيش الإسرائيلى، وأمامنا أيضا ـ ملف المذابح الجماعية للأسرى المصريين.. والفرق هنا يرجع إلى ارتباط

العسكريـة المصرية بدلالات ومعانى الارتقـاء الاجتماعى المبكـر للشعب المصرى وأهمية البـعد التاريخى وأثره.. أما تاريخ العسكـرية الإسرائيلية فيبـدأ قبل بضع سنوات وعـندما صدر قرار "بن جـوريون" سنة ١٩٤٩ بضم كل المجموعـات ـ العصابات ـ القتالية التـى خاضت معارك ١٩٤٨ وما قبلها وارتـكبت المذابح ومنها عصابة الهاجـاناة، فى جيش واحد هو "تساهل" الجيش النظامى الإسرائيلى..

وبالطبع فـإن الجيش الإسرائيـلى هو واجهة دولة طـفيلية، ويجـسد فلسـفة مجـتمع بـأسره بأن الوجـود والاستقـرار رهن تفوق قـوة الردع والبطش، بـل وإن ما تحلم به إسـرائيل من دور يرتبـط أساسا بقـدراتها العسكريـة.. ولذلك ليس غريبا أن تـكون المؤسسة العسـكرية هى قلب الحياة الإسرائـيلية ذاته، وأن تعتمد عـقيدة الحرب الإسرائيليـة على كافة الوسائل غير المشروعة.. وإذا كانت العسكرية الإسرائيلية لا تؤمن بعقيدة الاستعداد للتضحية فهى ترتكـز غالبا على دعم القوى الخارجية المساندة، وبمعنى انتـظار الإنقاذ من الآخريـن (اعتمدت علـى بريطانيا وفـرنسا ثم الولايات المتحدة) إذن فالعسكرية الإسرائيلية فى نهاية الأمر نموذج مجسم (ماكيـت) لدولة إسرائيل نستـطيع من خلاله قراءة مـا حدث على أرض الواقع من خطوات صناعة وطن قومى لليهود وما يحدث ويجرى الآن!! وكيف أن الحركـة الإسرائيلية ـ أو ما يـمكن أن نطلق عليه الـدور ـ تقفز خطواتها أو تتراجـع وفقا لمعايير المساندة والدعم والإنـقاذ من قوى دولية بعينهـا!! ونظرا لافتقاد الجـذور أو البعد التاريـخى وأثره فإنها تسـتعجل النتائج وتلهث وراء جنى ثمار تحركها بـأقصى سرعة ممكنة.. فهى حديثة النسب للزمن والتاريخ وتخشى أحكامه!

وإذا كانت العسكرية البريطانية والفرنسية وخلال القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين قد طرحت أمامنا نموذجين لعسكرية المصالح التجارية والمواجهات التقليدية، ودبلوماسية الزوارق المسلحة، والاحتكار القائم على القوة العسكرية.. وأن تبنى كل من الإمبراطوريتين السابقتين ـ بريطانيا وفرنسا ـ دورهما على زحف القواعد العسكرية إلى ما وراء البحار والمحيطات فى محاولة لتأكيد زعامة السيادة والسيطرة وبعد أن أصبحت القوة الاقتصادية والسياسية رهن غنائم ومكتسبات القوة العسكرية.. وكيف كان الصلف والغرور البريطانى راجعا لامتداد وتشعب وسيطرة هذه القوة..

....

إذا كانت هذه الصورة من الزمن الماضى القريب تجسيدا لدور العسكرية، داخل المفهوم الشامل للدور وتأثيره وتحركاته ومطامعه وأهدافه.. فإن العسكرية الأمريكية ـ حاليا ـ تبقى النموذج الأمثل للكشف عن حقائق الدور الأمريكى وأهداف السيادة الأمريكية وسياسة القوة التى تفرضها على العالم، والتطلع إلى السيطرة العالمية المطلقة، وفرض دور الوصاية الكاملة على شئون العالم، وأن تندفع فى طريق التحرش والصدام وبمفهوم أن الحل العسكرى ـ الحل بالقوة العسكرية ـ هو أقصر الطرق لتحقيق الأهداف وفرض الهيمنة، وبالتالى تعددت سلسلة القواعد العسكرية التطويقية إلى جانب سياسة الأحلاف.. وبهذه الرؤية ـ وكما يقول الدكتور جمال حمدان ـ أصبحت الولايات المتحدة وبوجودها العسكرى من قواعد وأساطيل جارا غير مرغوب فيه تشترك حدوده مع حدود كل دول العالم تقريبا..

وصحيح ـ كما يقال ـ أن الديناميـة العدوانية الأمريكية ترجع إلى أن الولايات المتحدة وبحكم ظروف خاصة جدا جغرافية وتاريخية قد وصلت إلى الصـدارة العالمـية قبـل الأوان وقبل أن تكـون مؤهلة لـها بالتـاريخ وبالتجـربة والنضج. . إلا أن المنطق العدوانـى والقوة العسكرية الـباطشة الطامعة تـرجع فى حقيقة الأمر إلى تـأثير قواعد التأسيس لـدولة حديثة النشأة نسـبيا اعتمـدت على منهجية الـشراء والاستئجار والـضم وسرعة الانقضاض للتـوسع والتمدد. . وحين بدأت فى أعقاب حـرب الاستقلال ١٧٨٣م فى التشكيل الجغرافى والتكوين السـياسى للدولة بالاستيلاء على فلوريدا من إسبـانيا، وشراء لويزيانا، من فرنسا، وضـم تكساس وانتزاع كاليفورنيا من المكسيك، وشـراء جاسدن، وضمت هاواى وجزر ساموا، وشراء ألاسكا وجزر الـوشيان من روسيا، واستولـت على جزر هاولاند وبيكر ومـيداوى، وشراء جـزر فرجين من الدانمـارك، واستئجـار بعض الجزر الأخرى. . وهكذا. . وخلال الحرب الأهـلية والانطلاق غربا على حساب السكان الأصليـين من الهنود الحمر، واستئجـار قواعد عديدة فى الأطلسى وداخل شريط الكاريبى. .

والشاهد أن عوامل تأسيس دولة عظمى حديثة العهد بالتاريخ وبمعيار الزمن ـ أكثـر من مائتى عام. . تـقريبا ـ لم تخلـق للعسكرية الأمـريكية عمـقا ترتـكز عليـه باستثـناء تجارب الحـروب الأهلية وعـمليـات الضم الإقليـميـة. . وحسابـاتها لا تخـضع إلا لخطط القـوة وأهداف السـيادة والأطمـاع الكوكبـية. . وهـذه العسكـرية المجنحـة والعائـمة فوق المـياه وبقواعدها الـتطويقية وبتوظيف للـتكنولوجيا فى أعلى مراحـلها، تحمل ملامح أقـرب لصورة سينمـائية مبـهرة ومثيـرة، تستعرض فـنون الحرب

الخاطفة أو حرب إبادية رهيبة دون مراعاة للمدنيين. . المهم. . ألا تتلاقى الجيوش وجها لوجه!! أما فى حالات المواجهة المتواصلة فإنها تثبت خواءها، وأمامنا تجارب عجز العسكرية الأمريكية فى فيتنام وكوريا ـ على سبيل المثال ـ وتلقت دروسا قاسية فى سايجون وسنتياجو وبغداد.

وأعتقد أن العسكرية الألمانية تقترب فى كثير من روح القتال والانضباط وجسارة المواجهة والقوة الذاتية الكامنة فى الطاقة البشرية، والثقة بالنفس على أساس أن الرجال هم معجزة القوات المسلحة وسرها، والاستعداد للتضحية. . تقترب بهذه الخصائص والملامح من العسكرية المصرية. . إلا أن تاريخ العسكرية الألمانية حافل بالغرائز التوسعية والنوازع العدوانية تدفعها ديكتاتورية عسكرية سافرة، متحرشة، مستفزة تريد التوسع وتمجد القوة، مع طغيان الأيديولوجية العنصرية الآرية. . ويرجع ذلك بالطبع إلى تأصيل سياسة الدم والحديد داخل حدود ألمانيا من أجل الوحدة ثم الزحف إلى خارج الحدود من أجل التوسع والانطلاق نحو السيادة. . وخاضت مواجهات ومعارك شرسة وأشد هولا فى محاولة لتحقيق أهداف ومطامع وتدعيم حركة الدور الألمانى!!

. . . .

. . . .

وما سبق مجرد لمسات سريعة، وبهذه اللمسات أريد أن أخلص إلى نتيجة مؤداها أن العسكرية المصرية تمثل أبرز ملامح الدور المصرى ـ المبادئ والثوابت والمواقف وأثر العمق التاريخى ـ ولمن يريد أن يقترب من حقائق الدور المصرى وقدرات الحركة والتأثير. .

وأن العسكريـة المصرية كانت على امـتداد سنوات من عمـر التاريخ تجسيدا لهذا الدور وقدراته، فمصر لم تفرض دورها على أحد وبالضرورة فإن العسكرية المصرية لم تكن يوما قوة غزو واحتلال.. وأن نظرية الأمن محددة تاريخيـا بأن تكون مصر فى وضع من القوة يسـمح لها بأن تقرر لنفسـها فى الحاضر والمسـتقبل ما تريد وفـق إرادتها وبغير خـشية من أى تهديد.. والمسألـة قبل أى شىء وبعد أى شىء أن هناك تراثا عـميقا من القيم والمبـادئ يضرب بجذوره فى أعـماق التاريخ وهو فاعـل ومؤثر فى وجدان المصريين وضمائرهم..

obeikan.com